مفهوم الاستعارة بين الاتّجاه العربيّ التّقليديّ والمنحى المعرفي التّجديديّ

The concept of metaphor between the traditional Arabic direction and the orientation Cognitive approach

د. الوناس نصيرة[1]

تاريخ الإرسال: 2023/06/29	تاريخ القبول: 2024/05/16	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

حظيت الاستعارة باهتمام الباحثين العرب منذ العصر القديم، وقد اصطبغ مفهومهم لها بصبغة خاصّة غايرت المفهوم الحديث، الذي حاول مقاربتها معرفيّا، مما جعلها تأخذ أبعادا مفاهيميّة تتجاوز النّظرة الجمالية إلى إطار أوسع جعل منها عمليّة عقليّة.

وعليه تأتي هذه الورقة البحثية للوقوف عند المفهوم العربيّ التّقليدي للاستعارة، في مقابل المفهوم التّجديدي لها، من خلال استجلاء مقوّمات كل مفهوم. وهذا ما سيسمح لنا برصد ذاك التحوّل المفاهيميّ للاستعارة، من كونها مبحثا بلاغيا خالصا إلى كونها مبحثا عرفانيا.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة، الاتّجاه العربيّ التّقليديّ، المنحى المعرفيّ التّجديديّ.

Abstract:

metaphor has attracted the attention of Arab researchers since the ancient era, and their understanding of it has taken on a special color that differs from the modern concept, which tried to approach it epistemologically, which made it take on conceptual dimensions that go beyond the aesthetic view to a broader framework that made it a mental process.

[1]جامعة امحمّد بوقرّة بومرداس n.lounnas-univ@boumerdes.dz

The innovative concept of it, by clarifying the components of each concept. This is what will allow us to monitor that conceptual transformation of metaphor from being a rhetorical topic to being a gnostic topic.

***Key words**: Metaphor, The traditional arabic direction, The orientation cognitive approach.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: الوناس نصيرة n.lounnas-univ@boumerdes.dz

1. مقدمة:

حظيت الاستعارة على وجه التّحديد باهتمام البلاغيين القدماء والمحدثين، ويتجلّى اهتمامهم بها بتخصيصها بالعرض والتّحليل، وذلك من خلال شرح مفاهيمها، وأنواعها، وضرب الأمثلة التّوضيحيّة لها، مع التّركيز على أهمّيتها في التّعبير عن المعنى. وإذا كان النّظر إلى الاستعارة في الفكر القديم يتمحور في عدّها إستراتيجيّة تزيينية للكلام، فإنّه دور ثانويّ وفق المقاربات المنهجيّة الحديثة، التي تجاوزت النّظر إلى الاستعارة في بعدها الجماليّ البحت، لأنّها تضطلع بوظيفة أخرى تداوليّة لا تنفصل عن التأثير والإقناع، كما أنّها وثيقة الصّلة بناحية التّفكير والإدراك العقليّ، وهو الوجه الآخر لانفتاح البلاغة على اللسانيات المعرفيّة.

إن الحديث عن الاستعارة من المنظورين العربي القديم والمنظور المعرفي الحديث يأخذ منا الصفحات الطوال، غير أننا سنتطرق في هذا المقال إلى الأبعاد المعاصرة التي أعطت هذا المفهوم البلاغيّ صبغة مختلفة من حيث التصوّر، بل ذهبت بنا إلى تخصّص آخر هو علم النفس المعرفي الذي أضفى لمسات بنائية ومعرفية على الدرس البلاغي القديم، وليس هذا وحسب بل أصبحت الاستعارة مبحثا عرفانيا بعد أن كانت مبحثا بلاغيا.

وعلى هذا الأساس وقع اختيارنا في هذه الورقة البحثية على موضوع: مفهوم الاستعارة بين الاتجاه العربيّ التّقليديّ والمنحى المعرفي التّجديديّ، وهو موضوع يتعلّق

بإشكالية أساسية مفادها: ما هي الآليات الحديثة للاستعارة من منظور المقاربة اللسانية المعرفية؟ وما حدود الدرس البلاغي القديم في ظلّ التغيّرات الجديدة الطارئة على المفهوم؟ وهل يمكننا الاستغناء عن التصوّر القديم للاستعارة بعد ظهور البلاغة الجديدة؟

وللإجابة عن ذلك فقد عرضنا الموضوع من خلال جملة من العناصر اعتمدنا في بسطها على الاستقراء والوصف والتّحليل.

إنّ الإجابة عن تلك التّساؤلات المحورية لموضوع الاستعارة ومنظوراتها المتعدّدة بين القديم والحديث تجعل القارئ مشدوها أمام التراكم المعرفي الذي جاء في تصوّر الاستعارة، على اختلاف مناهج دراستها ووسائل الكشف عن مفهومها. ويأتي طرح هذه التّساؤلات انطلاقا من فرضيّة مؤدّاها أنّ هناك تحوّل مفاهيمي جديد يتعلّق بمصطلح الاستعارة من منظور المقاربات اللّسانيّة المعرفيّة الحديثة؛ وهو تحوّل يتجاوز النّظرة العربيّة التّقليديّة. وعليه تروم هذه الورقة البحثيّة استجلاء مقوّمات الاتّجاه العربيّ القديم والمنحى المعرفيّ الحديث في تحديد مفهوم الاستعارة؛ والوقوف على أهميّة ذاك التحوّل المفاهيميّ، في ظلّ تطبيقات اللسانيات المعرفية في مجال البيان والتواصل؛ خاصة وأنّ الاستعارة في حقيقة الأمر ليست متوقّفة على التّطريز الكلامي أو على مجرّد استعراض الألفاظ، إنّما هي أوّلا وقبل كل شيء وسيلة للتأثير وآلية من آليات الحجاج الذي يعدّ أحد أهم أبواب اللسانيات التداولية اليوم.

2. مفهوم الاستعارة

الاستعارة من أكثر المفاهيم دورانا في كتب المحدثين نظرا لظهور مجموعة من النظريات الغربية التي سوقت لهذا المفهوم، وهذا ليس حكرا على هذا المصطلح بل هو مرتبط بجملة من العوامل التي جعلت من البلاغة القديمة تلبس ثوبا جديدا مختلفا عما كانت عليه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الانتقادات طالت الكثير من البلاغيين الجدد الذين يحاولون تحديث وعصرنة مباحث البلاغة والوقوف على تفاصيلها العصرية ولهذا وجب أن نقف مليا عند مفهوم الاستعارة في اللغة والاصطلاح.

1.2 الاستعارة لغة:

ورد مفهوم الاستعارة في العديد من المعاجم العربية، وأهمّ تعريف هو الذي جاء ذكره في لسان العرب لابن منظور الذي يقول: "تعوّر و استعار...طلب العارية، واستعاره الشيء واستعاره منه...طلب منه أن يعيره إياه...وفي حديث ابن عباس وقصّة العجل: من حلي تعوّره بنو إسرائيل أي استعاروه، يقال: تعوّر واستعاره نحو تعجب واستعجب...قال الأزهري: وأما العارية والإعارة والاستعارة فإن العرب فيها: وأما العارية والإعارة والاستعارة فإنّ قول العرب فيها: هم يتعاورون العواري ويتعاورونها، بالواو، كأنّهم أرادوا تفرقة بين ما يتردّد من ذات نفسه و بين ما يردد."[1]

وما يوضّحه لنا قول ابن منظور عن الاستعارة يجلي الغموض الذي قد يعترض ذهن القارئ، والأصل هو أنّ المفهوم يعني الانتقال من شيء إلى شيء آخر. وما يفهم من التعريف الذي سقناه هو أنّ الاستعارة هي عملية يشترك فيها عنصران اثنان بالضرورة، ومن هذا المنطلق نجد الاستعارة هي: "رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، ومن ذلك قولهم: استعار فلان سهما من كنانته، أي رفعه وحوّله منها إلى يدّه، فهي مأخوذة من العارية، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر"[2]. من خلال ما سبق نفهم أنّ الاستعارة تعني خلاف الحقيقة ذلك أنّ استعارة الشيء تكون على غير الواقع ولهذا نجد هذا المفهوم في ينتسب إلى أبواب البلاغة والبيان.

2.2 الاستعارة اصطلاحا

لم تبرح الاستعارة أبواب البلاغة لدى العرب؛ فهذا الجرجاني يربط بين الاستعارة والتطبيق يقول: "وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبيه أنّ الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلّا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب"[3]. وفي معرض حديثه عن علاقة الاستعارة بالمعاني عرّفها فقال:" أما "الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[4]. وهذا لا شكّ هو لبّ البلاغة والبيان في أحكام وأعراف العرب.

إنّ الأفكار التي طرحها الجرجاني كشفت لنا عن مدى أهمية الاستعارة في فهم المعاني، وهي إشارة لبيب إلى مبحث بلاغي من منظور حداثي. ونظرا لقيمة ما جاء به صاحب نظرية النظم فإنّ جلّ الأبحاث والدراسات العربية الحديثة تقرّ بسعة أفق الدرس البلاغي القديم.

3. الاستعارة في الدرس البلاغي القديم

إنّ الخوض في إشكاليات الاستعارة وأبعادها المعرفية عند الغرب يقتضي الولوج إلى مفهومها في الدرس البلاغي القديم؛ لأنّ البلاغة العربية كما جاء على لسان العرب والعجم أنّها جماع الحسن والجمال في اللغة العربية ولا أدلّ على ذلك ممّا ورد في البيان والتبيين للجاحظ الذي قال: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[5].

عود على بدء، كل شقّ و دقّ في العربية يدنو من البلاغة وصناعة اللفظ الموزون والمعنى المقصود لدى المتكلم، وهنا يفصّل الجاحظ الحديث عن رقّة ودقّة السّمت في اللغة العربية، وقد أردف قائلا:" فإن كان الخطيب متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنّه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف؛ ولأنّ كبار المتكلّمين ورؤساء الناظرين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع"[6].

إنّ المعاني التي نستشفّها من أقوال الجاحظ القيمة في الدرس البلاغي لا تنحصر في بلاغة الألفاظ وجزالتها، بقدر ما هي تعبير عن دور المقام والسياق في البيان عن مقاصد المتكلم، وهنا يذهب بنا الحديث إلى قدر ومنزلة أفكار البلاغيين وعلى رأسهم الجاحظ في الإشارة إلى مسائل وقضايا البلاغة خاصة ما تعلّق منها بالاستعارة، لاسيما

إذا علمنا أنّ الجاحظ هو أوّل من أشار إلى هذا المفهوم بل أهمّ ما قيل فيها هو من أقوى ما بسطه هذا العالم الفذّ في علوم البلاغة العربية التي جاءت في الدرس العربي القديم.

وإذا ما فتّشنا عن التصوّر العربي للفظ الاستعارة لوجدنا معظم فطاحلة البلاغة قد أشاروا إليه في غير ما موضع، وفصّلوا في ذكره من عدة زوايا، ولا غرابة في ذلك؛ لأنّه لم يكن يغيب عنهم شيء من فنون البديع ولا البيان ولا المعاني إلا وقد ألمحوا إليه في كتبهم؛ فهم أشدّ من حرصوا على فصاحة وبلاغة اللغة العربية التي كانت أسمى ما يملك العربي القحّ، ونظرا لعظم شأن الاستعارة فقد أفرد بعض البلاغيين فصولا وأبوابا خاصة بها؛ بل ضمّنوها أهمّ القضايا التي شغلت المتكلمين العرب ولذلك من يقرأ كتب البلاغة بمختلف فروعها سيجد أنّ الاستعارة هي أولى بالعناية من غيرها من المباحث الأخرى، فهذا الجاحظ قد سعى بكل الطرق لإيصال مفهوم الاستعارة بشكل جليّ، وهذا من نباهته و فطنته، فهو من أشهر الموسوعيين في ذلك الزمان؛ حيث يقول:" الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[7]. ويعدّ هذا التعريف أجود ما جاء في أبواب البلاغة عند العرب، ولا بدّ من الإشادة ههنا بقوّة بصيرة الفكر العربي القديم.

إنّ المسائل التي شغلت البلاغيين أمثال الجاحظ والجرجاني لا تقلّ عن نظيراتها ممن عاصروهم؛ فالاستعارة لم تترك شبرا ولا تبرا من كلام العرب إلا وجاء ذكرها أو التلميح إليها، فهي مما يتخيّر له الألفاظ وتفرد له المعاني وهذا ما أدركه الأوائل في تصنيفاتهم، وهو بالضبط ما ذهب إليه صاحب الصناعتين إذ يقول: "ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأنّ الرّديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام. وإنّما يدلّ حسن الكلام وأحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه"[8].

وهذا أبلغ ما وصلت إليه البلاغة العربية لاسيما إذا ما قارنا مفهوم الاستعارة الذي ورد في الصناعتين لأبي هلال العسكري بالتصوّر الغربي الذي ظهر في الدرس المعرفي، فسنجد أن لا مجال للمقارنة بين ما توصل إليه البلاغيون العرب وبين ما ذهب إليه البلاغيون الغربيون. وهذا نموذج مما جاء في تعريف الاستعارة إذ يقول العسكري

بأنّها: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه؛ وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة؛ ولولا أنّ الاستعارة المصيبة تتضمّن ما لا تتضمّنه الحقيقة؛ من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا"[9]، وهذا ما يسمّيه الغرب بالاستعارة المجسدنة، وقد عبر عنها القدامى بألفاظ ومصطلحات أخرى، فاعتقد بعض الباحثين ممن لم يعرف قدر المعاني وخصوصيات المفاهيم العربية فألصق بها العجز والنقص، وهذا أمر مذموم في البحث العلمي الرصين.

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أنّ ثراء الدرس البلاغي القديم بشروحاته وعلومه لن ينفذ الحديث عنه ولن يتوقّف المداد في كتابة جزالته وحصافة بيانه وغنى إشاراته وعمق تحليلاته، التي قل أن يوجد لها مثيل في الفكر الغربي قديمه وحديثة، وهذا ليس قولنا نحن بل بشهادتهم هم وإقرار كبار علمائهم الذين اطلعوا على التراث العربي، سواء تصريحا أو تلميحا.

4. مقوّمات الاستعارة في الفكر البلاغي القديم

لا يختلف اثنان في قضية أساسية هي كون الاستعارة من مقوّمات البلاغة العربية القديمة، وهذا ما سجّله التاريخ الغربي قبل العربي؛ فأصالة النظريات العربية لا غبار عليها ولهذا كان من الواجب الإشارة إلى آليات وظائف الاستعارة المبثوثة هنا وهناك. وحتى نصل بالقارئ إلى حيث ينبغي أن يصل سنوجز الحديث عن مقوّمات الاستعارة في الفكر البلاغي في النقاط التالية:

-هناك نظريّة عربيّة أصيلة تقعّد لمفهوم الاستعارة، فالكلمات وفقهم لها معنيان أحدهما: حقيقيّ والآخر مجازيّ، حيث حصل هذا الأخير بإبدال كلمات حقيقيّة بأخرى مجازيّة، ومسوّغ ذلك الإبدال هو علاقة المشابهة.

-الاستعارة ضرب من ضروب التّشبيه، وإن كان وجه الاختلاف بينهما قيام هذا الأخير على طرفين يجتمعان معا، في حين تقوم الاستعارة على طرف واحد يحلّ محلّ طرف آخر

لعلاقة مشابهة. والمشابهة ليست مفارقة تنمحي معها وجوه الاجتماع ولا مطابقة تنمحي معها الفروق، وإن كان الجرجاني قد تجاوز وظيفة المشابهة والنّقل إلى الوظيفة العقلية بتأكيده على البعد المعرفيّ للاستعارة، نظرا لدورها في التفكير وارتباطها بالعمليات العقلية.

- مفهوم الادّعاء أي ادّعاء دخول المشبّه في جنس المشبّه به، بما يحيل إليه هذا المفهوم من عملية التّداعي الذّهني التي يمارسها المتكلم والمتلقي (الادّعاء ممارسة ذهنية).

- مفهوم القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقيّ.

- نعثر في فكر بعض البلاغيين على غرار السكّاكي على طروحات جاءت مجاوزة لتلك المرتكزات التي قد تبدو بديهيّة (ارتباطها بكلمة واحدة)، لتجعل من مفهوم الاستعارة عنده يأخذ بعدا آخر هو أكثر انتماء إلى النّظريّة التّفاعليّة؛ فقد تتجاوز في تحديده لمفهوم الاستعارة الاقتصار على كلمة معجميّة واحدة إلى المشابهة بين الصور المركّبة، كما أنّها تحصل عنده من خلال التفاعل بين الكلمة المجاز وبين الإطار المحيط بها، وهذا ما يظهر في عرضه لأنواع الاستعارة على غرار الاستعارة التّمثيليّة التي يمثّل لها باستعارة وصف إحدى صورتين منتزعتين من أمور لوصف الأخرى، مثل قولك "أراك أيّها الفتى تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى»[10]. فالاستعارة في مثل هذا النّموذج هي من المجاز المركّب لا المفرد تآلفت أجزاؤها.

-خروج الاستعارة عن مجال الأدب أو الشعر إلى الاستخدامات اليومية.

-الاستعارة مجاز لغويّ، فخروج اللّفظ عن دلالته الأصليّة الموضوع لها إلى دلالة أخرى بقصد المشابهة يسمّى مجازا لغويّا. ويذهب بها البلاغيون أبعد من ذلك حينما يعتبرونها مجازا عقليّا نظرا إلى الدّعوى؛ أي ادّعاء نقل الاسم الذي لا بدّ أن يتبع بنقل للمعنى.

- تحديد طبيعة العلاقة بين المستعار له والمستعار منه يصنعها المتكلّم بذهنه لأنّها غير قائمة في أصل الوضع. وفي هذا السياق يحثّنا "السكّاكي" على ضرورة الاستعانة بعمليات التّأويل في كشف مضمر الخطاب بقوله: «اعلم أنّ وجه التّوفيق هو أن تبني دعوى الأسديّة للرجل على ادّعاء أنّ أفراد جنس الأسد قسمان بطريق التّأويل متعارف، وهو

الذي له غاية جرأة المقدّم ونهاية قوّة البطش مع الصّورة المخصوصة، وغير متعارف وهو الذي له تلك الجرأة وتلك القوّة لا مع تلك الصّورة»[11].

-وبخصوص وظيفة الاستعارة فإنّ لها وظيفة دلالية من حيث التّدليل على المعاني، ومن ثمّة وظيفة تواصلية، كما أنّ لها وظيفة حجاجية لارتباطها بالبعد التأثيري والإقناعي في نفس السامع، وهذا ما يشير إليه العسكري في مواضع متفرقة من مصنّفه وهو يعرض نماذجا للاستعارة؛ ففضل الاستعارة أنّها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة. لا سيما الاستعارات القرآنية.

وفي ختام الحديث عن مقوّمات الاستعارة عند العلماء العرب لا يمكن أن نغفل ارتباط الاستعارة في الفكر البلاغي القديم بالبعد الجمالي للخطاب، باعتباره عنصرا من عناصر التخييل؛ لذلك نراهم يؤكّدّون على أنّ الكلام كلّما كان موغلا في الغرابة كان أمتع للنفس التي يستهويها كلّ غريب.

5. الاستعارة في الفكر الغربيّ

تحدّدت الاستعارة وفق الرّؤية البلاغية الحديثة التي انفتحت على الدّرس المعرفيّ، حيث أصبح ينظر إليها في علاقتها بالفكر وبالعمليات الذهنية، فهي تبعا لذلك عملية إدراكية، ذات طبيعة تصوّرية لا لغويّة، تتجاوز القول بالنقل والاستبدال والمشابهة، تلعب دورا تواصليا كبيرا في حياتنا اليومية حتى أنّنا أصبحنا نحيا بها على حدّ تعبير لايكوف وجونسون ومن الضروري هنا الإشارة إلى أهمّ النظريات التي تطرّقت إلى الاستعارة في الفكر الغربي الحديث والتي نجملها فيما يلي:

1.5 النظريّة التّفاعليّة:

من أهمّ النظريات الحديثة التي يعود الفضل في بلورة أصولها إلى أرمسترونغ ريشاردز Armstrong Richards وماكس بلاك Max Black. وهي نظريّة تجاوزت النّظرة التّقليديّة للاستعارة القائمة على النّقل والاستبدال، "فالاستعارة بالنّسبة إلى مؤيّديّ هذه النّظريّة تتجاوز الاقتصار على كلمة واحدة، وهي تحصل من التّفاعل أو التوتّر بين

بؤرة المجاز والإطار المحيط بها. وتبيّن هذه النّظريّة أنّ للاستعارة هدفا جماليا، وتشخيصيا، وتجسيديّا، وتخييليّا...."[12].

تهدف النّظريّة التّفاعليّة إلى وضع أسس جديدة للاستعارة تقوم أساسا على التّفاعل القائم بين التّجربة البشريّة وما يحيط بها. ومن أهمّ مقوّماتها نذكر:[13]

1-مفهوم الاستعارة مبنيّ أساسا على التّفاعل وبالتالي فهي تتجاوز الاقتصار على كلمة واحدة.

2-الاستعارة معطي فكريّ لا لغويّ، تخصّ اللغة اليومية.

3-لا تقتصر الاستعارة على الاستعمال الإبداعيّ؛ بل هي مسألة طبيعيّة تتعلّق بالتّفكير الإنسانيّ.

4-لا تقوم الاستعارة على مبدأ المشابهة فقط، كما أنّ لها عدّة وظائف تتجاوز الوظيفة الجمالية.

2.5 النظريّة الانفعاليّة:

صاحبها بول ريكور Paul Riceour الذي تجاوز من خلالها القول بالاستبدال والمشابهة في دراسته للاستعارة، فهي عنده تهتمّ بدلالة الجملة ككل لا المفردة، يقول ريكور في سياق تحليله لنموذج استعاريّ: "...إذ لا يمكن التأمّل في قضيّة العدول عن المعنى الحرفيّ وإنّما توظيف عمل الإسناد على صعيد الجملة بكاملها؛ حيث التوتّر يحدث بين مفردتين في القول، بل هو في حقيقته توتّر بين تأويلين متعارضين للقول، والصّراع بين هذين التّأويلين هو الذي يغذّي الاستعارة"[14].

فالاستعارة عنده لا تتعلّق باستعمال مجازيّ لكلمة معيّنة بل لقول كامل، ويظهر ذلك من خلال التوتّر الحاصل بين تأويلين متعارضين للقول. ويرى ريكور أنّ الاستعارة ضروريّة في حياتنا لأنّها تسمح لنا بالتّفاعل مع ما يحيط بنا لتحقيق الفهم والتّواصل؛ إنّها تسمح لنا بالإحاطة بما هو أبعد عن كفاءتنا المفهومية، أي الاتّصال الذّهني بما هو بعيد عن تصوّرنا، كلّ ما هو مجرّد وغامض. وتتحدّد هذه الوظيفة الاستعاريّة في قول

ريكور: "... نتمكّن بواسطتها من الإحاطة بما هو أبعد عن كفاءتنا المفهوميّة، فبواسطة ما هو أقرب وما نسيطر عليه نتمكّن من الاتّصال الذّهنيّ بما هو بعيد وفالت"[15].

3.5 النظريّة التصوّريّة:

أعادت النظرية التصورية الاعتبار للاستعارة من مجرّد عنصر هامشيّ في تحليل الخطاب وفهمه إلى عنصر مركزيّ، بل أنّ أهمّيتها تمسّ الحياة البشريّة ككل ما دامت حاضرة في اللغة اليومية العادية، كما اعتبرتها ظاهرة ذهنيّة واللّغة وجه من وجوه إبرازها ولهذا: "أقدمت الدراسات التصورية منذ السبعينيات من القرن الماضي على تأسيس مفاهيم جديدة للأبينة الدلالية، غير أنّها لم تتبلور بالشكل المرجوّ إلا بعد مجيء العلوم العرفانية التي بحثت عن الشبكات النورانية المسؤولة عن تخزين المعلومات في الدماغ، كما حاولت الكشف عن كيفية استرجاعها لبناء تصوراتنا؛ كل هذا وفق أنساق مخصوصة تسعى لتحرير دراسة التصوّر من علم الدّلالة اللّساني إلى علم الدلالة العرفاني"[16].

إنّ تأسيس مفهوم الاستعارة هنا قائم على فهم المجال الدلالي والتصوّريّ عن طريق عملية الإسقاط الجزئيّ (وفق لايكوف)؛ فهو يحقّق فهم المجرّد انطلاقا من المحسوس. فقولنا على سبيل المثال: **أنياب المنية نشبت بفلان**؛ هي استعارة قائمة على تصوّر ذهنيّ جمع بين صورتين متباعدتين حسّا وعقلا، ولكن أمكننا أن ننتقل بفعل الذّهن من صورة لا معقولة إلى صورة معقولة تدخّلت مخيّلة الإنسان في نسجها وعقد ائتلاف بين عناصرها المتباعدة.

المجال الهدف: المنية: لها وجود معنويّ، تفتك بالجسم، تسلب الرّوح، شيء مخيف....

المجال المصدر للاستعارة: حيوان مفترس: له وجود محسوس، يفتك بالجسم، يسلب الرّوح، شيء مخيف....

كما أنّ هناك مجموعة من التضمينات المشتركة التي قرّبت بين المجالين ولعلّ المقام لا يتّسع لذكر كل ما يخصّ المجالات التصورية.

3.5. 1 أسس النظريّة التصوّريّة:

تقوم النظرية التصوّرية على مجموعة من المفاهيم الواردة في الفكر الغربي، فهي حاضرة في بعض المداخل الدلالية التي جمع أصولها "راي جاكندوف"، وهي نظرية قطعت أشواطا طويلة بفضل الأعمال اللسانية لتشومسكي الذي مهد الطريق لتلاميذه وسهل لهم الدخول إلى البلاغة الاستعارية من الباب الواسع. وأهمّ المفاهيم التي جاءت بها نذكر:

1. المقولة:

هي عملية عقلية تسمح بإدراج مجموعة من الأشياء المختلفة في صنف عام يجمعها؛ "إنّها طريقة طبيعيّة لتحديد نوع الأشياء أو التّجارب، وذلك من خلال تسليط الضّوء على بعض الخصائص والتّقليل من أهميّة خصائص أخرى أو إخفائها، وذلك يحصل كلّما قمنا بمقولة ما...إنّنا حين نصف الأشياء خلال حياتنا اليوميّة نستعمل مقولات تبرِّر بعض الخصائص الواردة التي توافق نوايانا"[17].

وعلى هذا الأساس لا ينفصل مفهوم المقولة عن التّجربة البشّرية، بحكم أنّها تقوم على تكوين العناصر الرمزية، التي لها ارتباط بالنماذج المعرفية المؤمثلة، مثل كلمة أمّ التي تتحدّد بأنّها (نموذج الإنجاب، الرّضاعة، الزّواج...)، وفي مقابل ذلك يمكن أن ترتبط بنماذج استعارية أخرى (أمّ الدنيا، أمّ المشاكل...).

والمعلوم أنّ الاستعارة تتجلّى أكثر في التمثّلات والبنى التصوّرية، ولذلك يرى "راي جاكندوف" أنّ:" أحد المظاهر الأساسية في العرفان هو القدرة على المقولة: الحكم بأنّ ذاك الشيء الخاص هو عيّنة من مقولة بذاتها أم لا ويعبّر عن حكم المقولة بسهولة أكبر في الإنجليزية بواسطة جملة إسنادية من قبيل"أ" هو كلب" وهي ممثّلة في منطق الرتبة الأولى بواسطة جملة ذرية من قبيل"ة أ" "[18] وقد بسط الحديث عن المقولة في فصل خاص أفرده لها.

2-الجسدنة:

الجسد أداة مساعدة في إدراك ما يحيط بنا والتّفاعل معه، كما أنّه أداة مساعدة في التفكير، وقد دمجت النّظريات المعرفيّة الحديثة بين الذّهن والجسد، مركّزة على العلاقة القائمة بينهما، وقد جعلت للفكر أسسا جسديّة.

فالجسدنة هي تمثّل للمفاهيم المجرّدة على أساس الجسد؛ فالعقل مثلا ينقل من خلال الاستعارة التجارب المادية للجسد كالحركة والرؤية البصرية ليشكّل منها المفاهيم المجرّدة، وهي أفكار لها ما يماثلها في التّراث العربي كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك في سياق الحديث عن مقوّمات الفكر البلاغي العربي القديم. يرى ابن العربي أنّ الإنسان هو الجامع للكون كما أنّه " الجامع لحقائق العالم كلّه من ملك وفلك وروح وجسم وطبيعة وجماد ونبات وحيوان إلى ما خصّ به من علم الأسماء الإلاهية مع صغر حجمه وجرمه، وإنّما قال الله فيه بأنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس لأنّ الإنسان متولّد عن السماء والأرض فهما له كالأبوين، فرفع الله مقدارهما ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلم يرد في الجرمية، فإنّ ذلك معلوم حسّا"[19]. وهي إشارة صريحة إلى الجسدنة التي جاءت في العديد من خطاطات مارك جونسونMark Johnson و ليونارد تامي Leonard Tammy.

3-التجربة:

تظهر مدى تفاعل الإنسان مع المحيط الذي يعيش فيه، وهي تصوير دقيق للواقع، وهذا ما ينبغي الحرص على ذكره في هذا الموضع. وقد أشار جاكندوف أيضا إلى موضوع التجربة بعد عرض مفهوم المقولة يقول:" وينبغي كذلك أن يميّز الحوافز التجريبية .... وبصفة أعمّ، فإنّ القدرة على المقولة ضرورية لا غنى عنها في استعمال التجربة السابقة لتوجيه تأويل التجربة الجديدة إذ دون مقولة تكون الذاكرة عديمة الفائدة"[20]، ممّا يعكس طبيعة العلاقة التّلازميّة بين العناصر الثلاثة: المقولة والجسدنة والتجربة؛ فالمقولة ضروريّة في استعمال التّجربة، وهذه الأخيرة تقوم على طبيعة الجسد من ناحية تشكّله ومن ناحية تفاعله مع العالم الخارجيّ.

وهكذا تعدّ التجربة إلى جانب المقولة والجسدنة أساس النّظريّة التصوّريّة.

6. تحليل نموذج استعاريّ

تتجلى لنا مظاهر المقاربة المعرفية في الدرس الغربي الحديث من خلال عرض بعض النماذج التمثيلية لنموذج الاستعارة من المنظور المعرفي، وهي محاولة لتحليل الاستعمال المجسدن، وهو بعد من أبعاد البلاغة الجديدة التي لم تكتف بالتعريف الروتيني لمثل هذه التصوّرات التي أخذت نصيبا وافرا في المباحث العربية القديمة، ولتوضيح وجهات النظر المعاصرة لفضاءات المفهوم الاستعاري نعرض فيما يأتي نموذجا عن ذلك ونحاول تحليله وفق نظرية الاستبدال والنّقل والمشابه، ثم من منظور تفاعليّ.

فحسب:(قولنا أنياب المنيّة نشبت بفلان) يمكن أن نعتبرها استعارة مكنية ذكر فيها المشبّه وحذف المشبّه به مع الإبقاء على لازمة من لوازمه، وهذا على سبيل تشبيه المنيّة بالسّبع الهتّاك في اغتيال النّفوس وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة، وبحكم وأهميّة التّشبيه يصحّ اعتبارها استعارة تخييليّة.

ففي هذا المثال هناك محاولة إيجاد نوع من المماثلة الدّلاليّة بين المشبّه (المنيّة) والمشبّه به (السّبع) بادّعاء ما يخصّ المشبّه به (المخالب) للمشبّه؛ لأجل المبالغة في التّشبيه. فالاستعارة هنا تخصّ صورة متخيّلة للمنيّة. وهذا على حدّ تعبير السكّاكي (تشبيه صورة بصورة+ممارسة التأويل)، ولعلّ ما يقرّب بين طروحات البلاغيين القدامى وبعض عناصر النّظريّة التّفاعليّة الحديثة هو تحليل الاستعارة كصورة مركّبة منتزعة من متعدّد، انطلاقا من خاصيّة التّفاعل بين المعنيين الحقيقيّ والمجازيّ.

ويمكننا توزيع الصور حسب ما جاء في النظرية التفاعلية التي ركّزت على المكوّنات التواصلية المتّصلة بالمعاني والمفاهيم المتوفرة في كل لغة طبيعية، منها:

- الصورة 1 صورة السّبع ذو المخالب، المفترس، المتوحّش، الهتّاك.

- الصورة 2 صورة المنيّة وهي تسيطر على جسم الإنسان.

بالذات تظهر بؤرة الاستعارة من خلال كلمة مخالب الموظّفة استعاريا في إضافتها للمنيّة. أما حدث التّفاعل التصوّريّ بين الصورة الأولى والصورة الثانية فيبدو واضحا في الصورة الثالثة وهي في الأصل صورة وهمية.

إنّ حاصل التفاعل بين الصورة الأولى والصّورة الثانية كان من خلال تصوير المنية في صورة السبع المفترس، وذلك بإضافة المخالب لها، فحدث هناك تفاعل تصوّريّ تمّ من خلال مزج صورة محسوسة بصورة معقولة، فتشكّلت عندنا صورة ثالثة قوامها: المنيّة حيوان مفترس، وعلى هذا النّحو فقدت المنيّة بعض سماتها المعقولة نتيجة تفاعلها مع الحيوان، وفقد الحيوان بعض سماته المحسوسة نتيجة تفاعله مع المنية، فأصبح عندنا:(المنية-صفات المنية +صفات الحيوان= حيوان).

7. خاتمة:

لقد أسهم الفكر البلاغي العربيّ القديم في التأسيس لنظرية الاستعارة تنظيرا وتطبيقا، ثمّ أنّ دراستهم لها لم تخضع تماما لمبدأي النّقل والمشابهة، لأنّهم عرضوا لآراء تعدّ من أساسيات الفكر الحديث، وهذا ما عرضنا له من خلال حديثنا عن مقوّمات الاستعارة في الفكر البلاغيّ العربيّ القديم.

وفي مقابل ذاك الفكر القديم فقد أعاد المشتغلون بتحليل الخطاب النّظر للاستعارة في ضوء المعطيات المعرفية الحديثة، لتأخذ بعدا آخر جعل منها نظرية ذهنية، استطاعت أن تدلّل على دور الإنسان في تحديد التصوّرات الدّالة، وقدرة الخيال على إيجاد تصوّرات دالّة، وهذا ما نستشفه جليّا بمطالعة مفهوم الاستعارة ومقوّماتها حسب النّظريات المعرفيّة الحديثة.

وعليه فقد اصطبغ مبحث الاستعارة بصبغة خاصة في الفكر البلاغيّ القديم، جعلها تتجاوز في أحيان كثيرة القول بالنّقل والمشابهة والاستبدال، أو الانحسار في البعد الجماليّ التّزيينيّ للخطاب، إلى الانفتاح على معطيات وافقت إلى حدّ كبير الطّروحات المعرفيّة الحديثة، وقراءة متأنيّة لفكر العرب القدامى تجعلنا نستشفّ ذلك.

*** *** ***

8. الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، دط، بيروت، د.ت، مادة عور، ص 618.

[2] انظر: عبد العزيز بن صالح العمار، التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن دراسة بلاغية تحليلية، المجلس الوطني للإعلام، ط1، دبي، 1428هـ-2007م، ص65.

[3] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، دط، جدة، د.ت، ص 20.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، دط، بيروت، د.ت، ص 138، 139.

[6] المصدر نفسه، ص 139.

[7] المصدر نفسه، ص 153.

[8] أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ط01، دب، 1371هـ-1952م، ص58 .

[9] المصدر نفسه، ص 268.

[10] أبو يعقوب السكّاكي، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرّسالة، ط01، بغداد، 1982، ص 606، 607.

[11] المصدر نفسه، ص 602.

[12] يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية، منشورات الأهلية، ط01، الأردن، 1997، ص 129.

[13] علوي أحمد صالح الملجمي، الاستعارة وعلاقة الإنسان بالبيئة في ضوء النظرية التفاعلية، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 09، اليمن، 2015، ص 326، 335.

[14] بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، إفريقيا الشّرق، دط، المغرب، 2002، ص 90.

[15] بول ريكور، الاستعارة الحيّة، تر: محمد الولي، دار الكتاب الجديدة، ط01، بيروت، لبنان، 2016، ص 213.

[16] فريدة رمضاني، البنية التصورية بين اللغة والدماغ في ضوء اللسانيات العصبية منظور "راي جاكندوف" أنموذجا (مقاربة عرفانية)، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، مج 8، ع 3، 2022، ص 195، 196.

[17] جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، ط01، المغرب، 1996، ص 165.

[18] راي جاكندوف، علم الدلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، دط، تونس، 2010، ص 161.

[19] ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، ط2، بيروت، 2007، مج1، ص 159.

[20] راي جاكندوف، علم الدلالة والعرفانية، ص 161.